



الرسائل

فن نثري متعدد الأشكال

يعدُّ أدب الرسائل من أهمِّ الأجناس الأدبية التي عرَفَتْهَا الثقافة العربيَّة؛ فهو فنُّ نثريٌّ جميلٌ يُظهرُ مقدرةَ الكاتبِ وموهبتهُ الكتابيَّةَ وروعةَ أساليبهُ البيانيَّةِ المُنمَّقةِ القويَّةِ. وقد قُسمتِ الرسائلُ إلى قسمين: رسائلُ ديوانيَّةٍ ذاتُ صبغةٍ رسميَّةٍ وأخرى إخوانيَّةٌ لعلاقاتِ الأصدقاء، وبرزت في هذا الجنسِ الأدبيِّ رسائلٌ كثيرةٌ منها رسائلُ ابنِ المقفَّعِ والجاحظِ.

وفي العصرِ الحديثِ لعبتِ الرسالةُ بوضفها فناً قائماً برأسه دوراً كبيراً في إثراء النصِّ العربيِّ، فثمةُ نصوصٌ قامت على أدبِ الرسالةِ مثلُ رسائلِ الرَّافعيِّ والزَّياتِ وغيرها. وفي مطلعِ القرنِ العشرينِ كانت هُناك العديدُ من النُّصوصِ الإبداعيةِ التي وظفت في بنيتها الأساسيّةُ أدبَ الرسالةِ كروايةِ «زهرةُ العمر» لتوفيق الحكيمِ.

ورغمَ أنَّ في الفترةِ الأخيرةِ من عُمرِ الأدبِ العربيِّ بدأتِ الرسالةُ تُشهدُ نوعاً من الشُّحوبِ والتراجعِ؛ إذ لا يُخصَّصُ عملٌ بذاته لهذا النوعِ الأدبيِّ، وإنَّما يُدرجُ ضمنَ أنواعِ أخرى، فإنَّ توظيفَ أدبِ الرسالةِ لا يزالُ قائماً في نصوصنا.

وقد نما أدبُ الرسائلِ مع قيامِ الكتابةِ بمهائمٍ ضَبطِ المجريَّاتِ السياسيَّةِ والثقافيَّةِ في العصرِ القديمِ، حينما لم يكنْ يُخطَرُ على

بال أحدٍ من القائمين على شؤونِ الدولةِ آنذاك أنَّ هذا الاعتقادُ على نمطِ مُحدَّدٍ من التداوُلِ الكتابيِّ سيؤلِّدُ أدباً يغيِّرُ من شكلِ المؤسَّسةِ السياسيَّةِ والثقافيَّةِ، ويُدفعُ إلى استخداَمه لئيسَ في حفظِ التداوُلِ المؤسَّسيِّ، إنَّما يشمَلُ التراسُّلُ المعرفيُّ والثقافيُّ أيُّ أدبٍ يُدعى أدبُ الرسائلِ بقسميهِ الحكوميِّ والاجتماعيِّ.

ومن المعروفِ أنَّ تعدُّدَ أشكالِ أدبِ

الرسائلِ قديماً ما بينَ الديوانيِّ والثقافيِّ والإخوانيِّ والسَّريِّ والدُّلوماسيِّ وغيرها، كانَ بحُكمِ الطَّبيعةِ الحضاريَّةِ آنذاك، لكنَّهُ لم يُعدِ اليومَ يُلبِّي مُتطلَّباتِ الحاضرِ، ويتعرَّضُ إلى الإهمالِ بعزوفِ المؤسَّساتِ والجمهُورِ عنه، والاكْتفاءِ

بفكرةِ الرسائلِ أو المراسلةِ، فنشهدُ تداعيهُ وذوبانَهُ في الوسائلِ الحديثةِ وأنحصارَ أغراضه في سلسلةِ التبادلاتِ السريعةِ التي فرضها العصرُ الرَّاهنُ، ممَّا يعني عدمَ اعتماده لوناً أدبيّاً كالمقامةِ التي تخلَّت عن مكانها للمسرحِ والشُّعرِ.

وإذا كانَ النُّقادُ العربُ القدامى قد أجمعوا بطرقٍ مُختلفةٍ على أدبيَّةِ النصِّ التراسُّليِّ وكتبوا حولها، فإنَّ النُّقادَ المحدثينَ قد بدؤوا غامضينَ متذبذبينَ في هذا النوعِ؛

فهم وإن أقرَّ بعضهم بأدبيَّةِ الرسائلِ، إلا أنَّهم في الغالبِ الأعمَّ يكتفون بهذا التقريرِ من دونِ تحديدِ مظاهرِ هذه الأدبيَّةِ.

وقد ظلَّ أدبُ الرسائلِ موجوداً منذُ أقدمِ العصورِ بأشكالهِ القديمةِ حتَّى بدايةِ العصرِ الحديثِ، الذي شهدَ اشتباكه بتكنيك التلغرافِ أو البرقيَّاتِ، فظهرت أشكالٌ مهمَّةٌ من أدبِ الرسائلِ في عددٍ من الأعمالِ منها كتاباتُ الرَّافعيِّ ومي زيادة، وظلَّ الأمرُ على هذا المنوالِ إلى أن جاءت ثورةُ التكنولوْجيا، وهو ما أحدثَ تغييراً كبيراً في الأجناسِ الأدبيَّةِ.

الأشكالُ الرقميةُ لأدبِ

الرسائلِ أصبحت

بديلاً عن الكتاباتِ

الورقيَّةِ التقليديَّةِ

فبالنسبةِ إلى أدبِ الرسائلِ، كانَ التغييرُ الذي أحدثتهُ تلكَ الثورةُ الرقميةُ تغييراً في الشكلِ والمضمونِ، فأصبحنا نرى

أشكالاً رقميةً من أدبِ الرسائلِ بديلاً عن نظيره الورقيِّ، ذلك النوعُ من الأدبِ الرقميِّ باتَ يهددُ الكتابَ الورقيِّ، خاصَّةً مع امتلاكه عدداً من المميزاتِ التي يفتقدها اللونُ التقليديُّ ومنها الإيجازُ واتِّخاذُ نافذةِ التواصُلِ الاجتماعيِّ بديلاً عن المطبعةِ، فضلاً عن انتشاره بشكلٍ أكبرٍ، مع الوضعِ في الاعتبارِ أنَّ الأدبَ الحديثَ لم يُهمَلِ ثيمةُ الرسائلِ في شكلها الرقميِّ المتطورِ.